مجلة الجامعة الأسمرية

عدد خاص 2 (2019) (جهود العلماء الليبيين في خدمة المذهب المالكي في القديم والحديث)

الشيخ زروق الفاسي المصراتي وجهوده في خدمة المذهب المالكي

عبد الصمد بوذِيّاب

باحث في الدراسات الإسلامية، وزّان، المملكة المغربية

Email: salmanboudiab@gmail.com

الملخص

يعد الشيخ زروق –رحمه الله– من العلماء الأعلام الذين خدموا الفقه المالكي تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.. ورغم ذلك لم يحظ تراثه الفقهي بما يلزم من الدراسة والاهتمام. كما هو الحال مع تراثه العقدي والصوفي.! علما أن مؤلفاته التي اشتُهِر عدها في خانة التصوف هي –عند التحقيق– ليست كذلك، فهي ليست في التصوف العام، وإنما جلها في فقه التصوف قصد منها الشيخ زروق –رحمه الله– ربط الأحكام الفقهية بأبعادها التربوية والأخلاقية، وربط التصوف بالأحكام الفقهية العملية وبيان ما يقبل منه –فقهًا– وما يرد وما يوافق الدليل وما يضاده. كما في كتاب " قواعد التصوف" وغيره.

لذلك كان هذا البحث الذي يهدف في المحور الأول إلى إبراز جهود الشيخ في خدمة المذهب المالكي من خلال مؤلفاته وشروحاته لمصادر الفقه المالكي، ثم إظهار ما كتبه في فقه التصوف وبيان حكم مسائله كما في المحور الثاني.

الكلمات المفتاحية: الفقه المالكي، الشيخ زروق، تصوف الفقهاء، فقه التصوف.

ISSN: 2706-9524 (Print) **ISSN**: 2706-9532 (Online)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين وأتباعهم إلى يوم الدين..

المقدمة

يعد الشيخ زروق الفاسي المصراتي رحمه الله تعالى ورضي عنه، (846-899 هـ) من أئمة المالكية الأعلام الذي خدموا الفقه المالكي خدمة كبيرة، فهو –رحمه الله– من القلائل الذين جددوا في الدرس الفقهي المالكي من خلال ربط أحكام الفقه بباقي العلوم الشرعية كالتصوف والعقيدة، وغيرها. فأعاد للأحكام الفقهية أبعادها التربوية، وضبط أصول التربية الصوفية بالأحكام الفقهية.

اشتغل الشيخ زروق – رحمه الله– طوال حياته بالفقه المالكي تدريسًا وتعليمًا وإفتاءً وتأليفًا، وصارت مؤلفاته وشروحاته وتحقيقاته الفقهية، مرجعًا للفقه المالكي في الديار المغربية والليبية، بل وفي مختلف الربوع الإسلامية، لذلك فدراسة سيرته وإسهاماته العلمية والفقهية ينبغي أن لا تخلو منها المحافل العلمية، لاسيما تلك التي تعنى بعلماء ليبيا وفقهائها من المالكية.

إن المتابع لما يُكتب عن الشيخ زروق يلحظ الاهتمام الكبير بجانب التصوف والعقيدة في مؤلفات الشيخ زروق من خلال العشرات من الدراسات وأطاريح الدكتوراه وغيرها من الأبحاث الجامعية؛[1] غير أن الجانب الفقهي من علم هذا الإمام لم يحظ بما يلزم من الدراسة والعناية والمدارسة، فالشيخ زروق الصوفي والمربي كتب عنه الكثير، لكن الشيخ زروق الفقيه المالكي المجدد للدرس الفقهي بليبيا وبالغرب الإسلامي لا تزال الدراسات عنه شحيحة إن لم تكن معدومة، مع العلم أن حتى ما صنف من كتبه ومؤلفاته على أنه صوفي تربوي هو فقهي بالأساس، فمؤلفاته الصوفية التي شهرها الناس على أنها في التصوف

[1] لعل آخرها رسالة دكتوراه بعنوان "ملامح الدرس العقدي عند صوفية الغرب الإسلامي الشيخ زروق نموذجا" للدكتور هشام الحليمي، نوقشت بكلية أصول الدين جامعة القرويين بتاريخ 2017/01/31م.

هي عند التحقيق –كما سيأتي– في فقه التصوف وضبط مسائله وبيان ما يجوز منه وما ويكره ويمنع.

يكفي الشيخ زروق اهتمامه بهذا الجانب أن تحظى مؤلفاته بالدراسة الفقهية، أما وأن الرجل له –بالإضافة إلى هذا– مؤلفات كثيرة في الفقه المالكي وفي مصادر الفقه التي كانت معتمدة عند العلماء ومقررة على الطلبة، فإن الأمر يبعث –أولا– على التساؤل عن سبب غياب الاهتمام بالشيخ زروق الفقيه كما وقع الاهتمام به صوفيّا ومربيّا.. ويستلزم –ثانيا– الدعوة إلى مزيد من العناية بتراثه الفقهي وإحياء مشروعه في تجديد الدرس الفقهي المالكي من خلال شرح متونه ومصادره، شرحًا يتوافق والمستجدات العصرية والنوازل الوقتية، وهذا ما سأحاول توضيحه أكثر –إن شاء الله تعالى– في هذه الورقة البحثية من خلال محورين اثنين، يتناول أولها: مسار الشيخ العلمي، ويتناول ثانيها: جهوده في خدمة المذهب المالكي.

۞ ۞ ۞

المحور الأول: مكانة الشيخ زرّوق العلمية وملكته الفقهية

تميزت حياة الشيخ أحمد زرّوق –رحمه الله– بخصائص وسمات، جعلت منها محل عنايةِ واهتمامِ الأقدمين والمعاصرين، فرغم الصعوبات التي عاشها في حياته من يتم وغيره، إلا صبره على التعلم ومكابدته في التحمل وحسن طويته وإخلاصه جعل اسمعه محفورًا في تاريخ المدرسة المالكية المغربية والليبية، وصار محل مدح الجميع من داخل المذهب وخارجه.

فمن هو الشيخ زروق؟ وكيف درس وتعلم حتى وصل الدرجة العلية في العلم؟

وما مكانته بين المؤلفين والمصنفين ومقامه بين العلماء الراسخين؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما سأحاول الإجابة عنه من خلال مطلبي هذا المحور بحول الله تعالى.

المطلب الأول: الشيخ زروق بين فاس ومصراته

الشيخ زروق هو الإمام الأجل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى البُرْنُسي الفاسي المصراتي، المشهور بالشيخ زَرّوق[1]، نسبة إلى جده الذي كان أزرق العينين،[2] وتنحدر أصوله من قبيلة البرانس البربرية ما بين مدينتي فاس وتازة بالمغرب من أسرة معروفة بالصلاح والورع والتقوى، لدرجة أن أهل المنطقة جعلوا لوالده ضريحًا مشهورًا يزار إلى اليوم.

ومما يميز حياة الشيخ أنه من الذين ترجموا لأنفسهم، فذكر في كناشتة[3] تاريخ ولادته وأنها كانت "عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، (846 هـ)"[4].

كما ذكر أن والداه توفيا في الأسبوع الأول الذي تلا ميلاده نتيجة للطاعون الذي ضرب فاس سنة (846 هـ)، فتربى في حجر جدته لأمه فاطمة أم البنين،[5] التي حرصت على إدخاله الكتاب وتعليمه الصلاة وهو ابن خمس سنين، كما درسته مبادئ علم التوحيد والإيمان والديانة. فحفظ القران الكريم وتمكن من أساسيات العلم بالدين وهو ابن العاشرة، غير أن القدر عجل بوفاة جدته في تلك السن، ليتولى تربيته أحد أقاربه، ويضطر هو لكسب قوته بيده، فتعلم الخرازة وامتهنها حتى بلغ السادسة عشرة من عمره.

---

[1] "زروق" بفتح الزاي المعجمة ثم الراء المشددة المضمومة فواو ساكنة، ويطلق على من به زرقة بالعين في بعض مناطق المغرب.

[2] البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم التلمساني، ص: 45، المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، طبعة 1326 هـ/1908م.

[3] هي عبارة عن كشكول من المعارف والمعلومات " بمثابة الترجمة الذاتية للمؤلف، دوّن فيها نشأته وتعليمه الأولي ثم دراسته للعلوم وتعاطيه للصناعة، وإفادات تاريخية عن مجتمع فاس، حيث قضى المؤلف حياته الأولى. ينظر: المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، محمد المنوني ج 1، ص: 118. مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر . الدار البيضاء. طبعة 1404 هـ/1983م.

[4] الكناش: صور من الذكريات الأولى للشيخ أحمد زروق. تحقيق علي فهمي خشيم. ص: 11. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، طبعة خاصة بمناسبة مهرجان زروق (الذكرى الخمسمائة لوفاته).

[5] كانت تدعى بذلك أسوة بالسيدة فاطمة الفهرية –التي بنت جامع القرويين سنة 245 هـ– لما كانت عليه من العلم والصلاح.

استفاد الشيخ من ولادته ونشأته بحاضرة فاس العلمية، وأتيحت له الفرصة للتتلمذ على شيوخها والدراسة بمدارسها وجوامعها وفي مقدمة ذلك جامع القرويين الذي نهل من علم شيوخه والعلماء الذين كانوا يأتون إليه، فتكونت عنده ملكة علمية كبيرة ومُكْنة فقهية رصينة.

هذه الملكة وتلك المكنة ستزداد رسوخًا وشحذًا بعد رحلاته خارج القرويين؛ إذ إنه في عام 873 هـ غادر بلاده لأداء فريضة الحج، وفي طريقه نزل القاهرة ومكث فيها فترةً، ثم بعد أداء مناسك الحج لبث في المدينة عامًا يجالس علماء الحرم النبوي الشريف من مختلف الاتجاهات المذهبية والمشارب الفكرية، ثم قفل من رحلة الحج، ودخل القاهرة واستقر فيها هذه المرة عامًا كاملا (876 هـ) وطد فيه العلاقة بالأزهريين وغيرهم من العلماء والمشايخ، ومنهم:

- نور الدين السنهوري المصري شيخ المالكية في وقته (ت 889 هـ).
- محمد بن عبد الرحمن السخاوي صاحب التآليف الحسان المعروفة (ت 902 هـ).
- أحمد بن عقبة الحضرمي، الذي كان له بالغ الأثر في تلقينه معارف أهل التصوف السني البعيدة عن البدع والشطح (ت 895 هـ).

وبعد هذه الرحلات أخذًا وعطاءً، انتهى المسار بالشيخ زروق إلى مدينة مصراته الليبية عام 886 هـ فطاب له المقام فيها وأعجب ببساطتها وصفائها، وبما "طُبع عليه غالب أهلها من الحياء والتقشف، ومحبة الصالحين والاعتناء بالمنتسب إلى طريقتهم. ولما فيهم من السخاء ولين الجانب للغريب"[1] فقرر الاستقرار النهائي بها وقضاء بقية أيام حياته فيها، وتزوج بها واستقدم زوجته المغربية إليها، وكان محل توقير وتعظيم من أهلها، وتجمع حوله الطلبة والمريدون، وصارت لمجلسه الصدارة ، وكأن الله اختار له مصراته واختاره لها، وهذا ما يفسر جوابه رحمه الله لما سئل عن سر إقامته بها فقال للسائل: "أمّا ما ذكرتَ من استيطاننا هذه البلدة، فأمر خارج عن قياس النظر، غير مصحوب

[1] الإشارات لبعض ما لطرابلس الغرب من المزارات، ص: 6.

بالجزم ولا معقود لشيء نعلمه، بل اتفاقيٌّ ظهر وجوده فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق"[1].

لم يعد الشيخ رحمه الله لفاس وبقي بمصراته إلى أن انتقل إلى جوار ربه سنة 899 هـ، عن عمر يناهز أربعًا وخمسين سنة، مخلفا وراءه تركة علمية نفيسة، أفادت وتفيد طلاب العلم والمعرفة.

أما خِلفته من الذريّة فترك أحمد الأكبر، وأحمد الأصغر من الزوجة الفاسية، وأحمد أبا الفتح، وأحمد أبا الفضل بالإضافة إلى عائشة من زوجته المصراتية، وقد توفي الثلاثة الأخيرون واحداً تلو الآخر، أما أحمد الأكبر فقد استقر به الأمر نهايةً بالجزائر بين أتباع والده، وكان معه أخوه أحمد الأصغر الذي عاد إلى مصراته، ولم يعرف بعد هذا شيء عن أسرة الشيخ زروق .[2]

المطلب الثاني: ملكته العلمية ومكانته بين علماء عصره

المسار العلمي السابق للشيخ زروق أورثه ملكةً علميّةً ومكانةً عليّةً، فكان فقيهًا في مجلس الفقهاء، ومفسرًا في مجلس المفسرين، ولغويًا وأديبًا في مجلس أهل البيان والبلاغة، وسيد الطريقة ومحتسبها في مجالس الصوفية. فأينما ولّيت وجهك نحو العلوم الشرعية فثم جهود الشيخ تدريسًا وتأليفًا؛ فاستطاع أن يقنع من الأتباع ما أمكن به تشكيل نواة الطريقة الزروقية، سواء بفاس التي تعلم بها، أو بجاية والقاهرة اللتين مر منهما، وكذلك مصراته التي استقر بها إلى أن توفاه الله ودفن بها.

---

[1] أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، المطبعة الحجرية . فاس 1920، ص: 92.

[2] للتوسع في ترجمة الشيخ أحمد زروق ينظر: "ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة" لعبد الله كنون ج 1 طبعة دار ابن حزم، ص: 541–578. وكتاب: "أحمد زروق والزروقية" لعلي فهمي خشيم، وكتاب "الشيخ أحمد زروق وآراؤه الإصلاحية: تحقيق ودراسة لكتابه: عدة المريد الصادق" لإدريس عزوزي، بالإضافة إلى: تحقيقات ومصنفات حفيد الشيخ زروق محمد طيب. أما ترجماته المختصرة فمبثوثة في كتب كثيرة، منها: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسخاوي، و"درة الحجال في أسماء الرجال" لابن القاضي، و"دوحة الناشر" لابن عسكر الشفشاوني، و"الرحلة العياشية" لعبد الله العياشي، و"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن العماد الدمشقي، و"البستان" لابن مريم، و "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي، و"طبقات الشاذلية الكبرى" للحسن الكوهن الفاسي، وغيرها.

لقد أوقف فقيه الصوفية ومحتسب طرقها –رحمه الله– حياته على خدمة العلم وأهله، مجتهدًا مجدًّا في إحياء روح الفقه المالكي من خلال ربط أحكامه الشرعية بأبعادها الأخلاقية، وأيضًا تنقية التصوف من الخرافات الوهمية وربطه بالأحكام الفقهية، فألف في ذلك كتبًا وشرح أخرى، ففاقت مصنفاته الثمانين[1]، بعضها حُقّق وطبع، والبعض الآخر لا يزال ينتظر[2]، فأغنى بذلك المكتبة المالكية بتآليف في منتهى الضبط والدقة، وزود الخزانات بمصنفاتٍ ودراساتٍ وتحقيقاتٍ غاية في الإبداع والإتقان، جلها يتسم بالاختصار المفيد[3]، والأسلوب الممتع الفريد[4].

قال صاحب "البستان" عن خصوصية المؤلفات الزّروقية: "وأما تآليفه فكثيرة؛ يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، ولا يخلو شيء منها من فوائد

[1] جاء في موسوعة معلمة المغرب (ج 14، ص: 4630) أن التراث الزروقي "يربو عن المائة تأليف، في التفسير والحديث والفقه والتصوف والكلام والطب والتراجم وغيرها من العلوم والفنون". غير أن هذا العدد يحتاج للفحص والتدقيق، خاصّة إذا استحضرنا تعدد عناوين كتب زروق رحمه الله، فقد تجد كتابًا واحدًا له أكثر من عنوان. يقول الصادق بن عبد الرحمان الغرياني في هذا السياق: "ويلاحظ أن عددًا كبيرًا من كتبه مكرر تحت عناوين مختلفة، والمحتوى واحد، أو مع اختلاف طفيف، بالتقديم أو التأخير أو الاختصار، وذلك كما في هذا الكتاب (عدة المريد الصادق)، وكتابه (النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة)، وكتاب (البيع)، و(البدع والحوادث)، (والجامع لجمل من الفوائد والمنافع)، فهذه خمسة عناوين هي في الواقع أسماء متعددة لكتاب واحد، ولا يكاد يوجد بينها اختلاف، وكما في (قواعد التصوف) و(تأسيس القواعد)، فهما عنوانان في قائمة كتبه، ومضمونهما واحد، وربما اختصر المؤلف الكتاب في بعض رسائله الصغيرة، فكون هذا الاختصار عددًا آخر من كتبه، كما في رسالته في الرد على أهل البدع، تشتمل على عشر ورقات هي خلاصة لما قاله في (عدة المريد الصادق). مقدمة "عدة المريد الصادق" الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم. الطبعة الأولى 1427 هـ/2006 م، ص: 12–13.

[2] الحمد لله أنه بين الفينة والأخرى، نسمع عن تحقيق كتاب من كتب هذا العلم وطبعها، حيث حُقق منذ سنة 2000م إلى اليوم حوالي ثلاثين كتابًا، في غياب التواصل بين المؤسسات الأكاديمية، في العالم الإسلامي.

[3] هناك مؤلفات لزروق لا تتعدى خمس عشرة صفحة، مثل "مراتب أهل الخصوصية"، بل عنده "رسالة الأمهات"، أو: "الأصول البديعة والجوامع الرفيعة"، مطبوعة في أقل من 10 صفحات، لكن مصنفات زروق رحمه الله، وإن جاء بعضها مختصرًا في شكل رسائل قصيرة، إلا أنها في غاية الإفادة.

[4] دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ص: 50.

عديدة، وتحقيقات مفيدة، سيما في التصوف، فقد انفرد بمعرفته وبجودة التأليف فيه"[1].

وقال الدكتور عبد الكريم العلوي المدغري مبرزًا قيمة مؤلفاته وأنها تهدف "إلى إبراز معالم الشريعة الواضحة، والطرق الصوفية السنية السليمة، التي تستقي أصولها ومنابعها من الكتاب والسنة وتبتعد عن كل ما يمكن أن يكون فيها أو يلصق بها من الأهواء والبدع أو يكدر صفوها من الخرافات والتصرفات البعيدة"[2].

إن المتأمل في مكتبة الشيخ أحمد زروق، يشعُر وكأنه أمام مكتبة عامة لا خاصة، لتنوع علومها ومعارفها واختلاف فنونها، ففيها: التصوف، والفقه، والتفسير، والحديث، والعقيدة، والذكر، والرِّحْلات، والرسائل، والشعر، والطب، والسيرة الذاتية، والحروف، والأرقام، وغيرها، ما يجعل القيام بعمليّة إحصائية دقيقة لمؤلفاته في غاية الصعوبة، لكثرتها من جهة، ولتشعب مواضيعها من جهة ثانية، غير أن ذلك لم يمنع بعض العلماء من المحاولة.

ومن ذلك ما قام أحمد بابا التنبكتي الذي يقول: "وأما تآليفه فكثيرة ... منها شرحان على "الرسالة"[3]، وشرح "إرشاد ابن عسكر"[4]، وشرح "مختصر خليل"[5]، رأيت مواضع منه بخطه عن الأنكحة والبيوع وغيرها، وشرح "الوغليسية"[6]، وشرح "القرطبية"[7]، وشرح "الغافقية"[1]، وشرح "العقيدة القدسية[2]"

---

[1] البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم ص: 46.

[2] عبد الكبير العلوي المدغري في تقديمه لكتاب: الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية ص: 4.

[3] يقصد رسالة ابن أبي زيد القيرواني التي شرحها زروق مرتين، وكلاهما مطبوعان: أحدهما في مجلد واحد، والثاني في مجلدين.

[4] عنوانه الكامل: مفتاح السداد الفهمي شرح الإرشاد الفقهي، وهو شرح لكتاب: "إرشاد السالك إلى أشرف المسالك على مذهب الإمام مالك" لابن عسكر البغدادي المتوفى 732 هـ. وقد حقق الكتابَ بعضُ الباحثين بجامعة المرقب بليبيا، لعله لم يطبع بعد، والله أعلم.

[5] لم أعثر عليه.

[6] مطبوع –في مجلد من الحجم المتوسط– بهذا العنوان: "شرح العلامة زروق على المقدمة الوغليسية في العقيدة والفقه والتصوف". تحقيق محفوظ بوكراع وعمار بسطة. نشرته دار ابن حزم. ط الأولى 1431 هـ/2010م.

[7] مطبوع في عنوانين: الأول: "التذكرة القرطبية للشيخ سابق الدين القرطبي" بشرح الشيخ أحمد زروق، دراسة وتحقيق: أحمد عثمان إحميد. منشورات: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس. والثاني: "المقدمة القرطبية

للغزالي، ونيف وعشرون شرحا على الحكم، وقفت على الخامس عشر والسابع عشر منها، وأخبرني والدي –رحمه الله تعالى– أن بعض المكيين أخبره، أن له عليها أربعة وعشرين شرحا[3]، وشرحان على "حزب البحر"[4]، وشرح "الحزب الكبير"[5] لأبي الحسن الشاذلي، وشرح مشكلاته[6]، وشرح "الحقائق والدقائق"[7] للمقري، وشرح "قطع الششتري"[8]، وشرح "الأسماء الحسنى"[9]، وشرح "المراصد"[10] في التصوف لشيخه ابن عقبة، و"النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية[11]" ومختصره[12]، و"إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين"، وكتاب "القواعد في التصوف[13]".

على مذهب السادة المالكية، بشرح العلامة الزاهد الشيخ أحمد زروق البرنسي، تحقيق: حسن زقور. دار التراث ناشرون، الجزائر، ودار الغرب الإسلامي، ط الأولى: 1426 هـ، 2005م. كما توجد نسخ مخطوطة لهذا الشرح في الخزانة الحسنية بعنوان: "إفادة الولدان ببعض مسائل الدين في شرح الأرجوزة القرطبية".

[1] توجد نسخة منه في الخزانة الحمزاوية مبتورة الأول، والغالب أن الكتاب لم يحقق بعد.

[2] نسبة شرح "العقيدة القدسية" لزروق غير دقيق، فهو شرح الفصل الأول من هذا الكتاب وبعضًا من الثاني فقط.

[3] من الشروحات المطبوعة: الشرح الحادي عشر والخامس عشر، صدرا عن دار ابن حزم، والسابع عشر عن دار الكتب العلمية، بيروت.

[4] طبعته دار جوامع الكلم في القاهرة بهذا العنوان: "مفاتيح العز والنصر في التنبيه على ما يتعلق بحزب البحر لقطب الأقطاب سيدي أبي الحسن الشاذلي" بتحقيق: أحمد فريد المزيدي.

[5] لم أقف عليه.

[6] أخرج هذا الشرح محمد عبد القادر نصار بعنوان: "شرح غوامض حزبي الشاذلي، يليه الجامع لجمل من الفوائد والمنافع". طبعته دارة الكرز، ط الأولى، 2011م.

[7] لم أقف عليه.

[8] مطبوع بعنوان: "تعليق على مقطعات الششتري"، تحقيق ودراسة مصطفى الغفيري، طبعته المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط الأولى، 2012م.

[9] مطبوع بعنوان: شرح أسماء الله الحسنى ويليه شرح منظومة الدمياطي لخواص أسماء الله، تحقيق يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 2007م.

[10] المقصود كتاب: "المراصد في التصوف"، لأحمد بن عقبة الحضرمي، وشرحه زروق بعنوان: "فتح المواهب وكنز المطالب في التنبيه على بعض ما يتعلق بصدور المراتب ونيل المراغب." هكذا ذكره صاحب كتاب: "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، عناية: رفعت بيلكه الكليسى ج 2 ص: 175. دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دون تاريخ)، وقد ذكر الكتاب بأسماء أخرى قريبة منه.

[11] مطبوع ومتداول.

[12] أي مختصر "النصيحة الكافية".

[13] الكتابان الأخيران مطبوعان ومتداولان.

وهذه الثلاثة في غاية النبل والحسن، سيما الأخير لا نظير له. وكتاب "النصح الأنفع والجُنَّة للمعتصم من البدع بالسنة[1]". بالإضافة إلى "عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت"[2]؛ الذي هو سفر نفيس ضمنه الشيخ زروق مائة فصل بيَّن فيها البدع التي يفعلها فقراء الصوفية، وكيف أنها بعيدة عن المسلك الجنيدي.

كما له تعليقات لطيفة على "البخاري"[3] قدر عشرين كراسا اقتصر فيه على ضبط الألفاظ وتفسيرها، وجزء صغير في علم الحديث[4]. وله رسائل كثيرة[5] لأصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف مع الاختصار قلّ أن توجد لغيره[6]".

غير أن محاولة التنبكتي لم تستوف التركة العلمية للشيخ زروق كلها، لأن له أيضًا: "الفهرسة"[7] و"الكناشة" و"شرح المباحث الأصلية"[8] و"نظم فصول السلمي في عيوب النفس"[9] و"رسالة الأصول البديعة والجوامع الرفيعة"، و"رسالة

---

[1] هو نفسه: عدة المريد الصادق، مع تغييرات طفيفة.

[2] مطبوع ومتداول.

[3] طبع قديما بمصر في خمسة مجلدات بعنوان: "شرح صحيح البخاري للشيخ زروق الفاسي"، تحقيق: عزت علي عطية وموسى محمد علي، طبعته دار حسان، القاهرة، (دون تاريخ).

[4] صدر عن دار ابن حزم سنة 2006م في 56 صفحة.

[5] تولى بعضها بالتحقيق حفيد أحمد زروق محمد طيب في كتاب: "أصول الطريق" لأحمد زروق، الذي طبعته دار الكتب العلمية سنة 2010م، وقد ضمنه المحقق ست رسائل.

[6] علق عبد الله كنون على مؤلفات الشيخ زروق فقال رحمه الله: "وكتبه وإن كانت كلها محررة مفيدة، إلا أن عيونها هي الثلاثة (يقصد: "النصيحة الكافية"، و "إعانة المتوجه المسكين"، و "قواعد التصوف") التي ذكرها صاحب "الابتهاج"، ويزاد عليها كتاب "عدة المريد" الذي لا نظير له في النضح عن التصوف والدفع في وجوه أدعيائه بالحجة والبرهان، وهو في نظرنا عديل كتاب "تلبيس إبليس" لابن الجوزي، وربما فاقه، لاختصاصه بهذا العلم، ولمكانة صاحبه عند المتصوفة أنفسهم". ذكريات مشاهير رجال المغرب ج 1 ص: 560– 561. ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي ص: 131–132، بتصرف بسيط.

[7] لعل المقصود "الكناشة" المذكورة سابقًا، والله أعلم.

[8] صدر عن دار الإحسان بعنوان: "اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية على جملة الطريقة الصوفية". بتحقيق: محمد عبد القادر نصار وعبد الله جمال سنة 2015م.

[9] مطبوع بتحقيق: محمد طيب، أخرجه بعنوان: "عيوب النفس ودواؤها للشيخ أحمد زروق. طبعته دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 2010م.

في أصول الطريق"[1]، و"الدرة المنتخبة في الأدوية المجربة"[2]، و"المواهب السنية في خواص منظومات نور الدين الدمياطي"[3]، و"أحكام الحج"[4]، و"تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الأصول"[5]، و"رسالة في الوعظ"، و"مكاتبة إلى كافة الفقراء"[6]، و"الجامع لجمل من الفوائد والمنافع"[7] و"الوظيفة الزروقية"[8]، و"مناقب أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي"، و"شرح عقيدة الإمام الغزالي"، و"اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد"[9]، وشرح "أرجوزة ابن البنا في التصوف)" و"الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية"[10]، و"تحفة المريد[11]" [12]. "وفي كل هذه الآثار كان الشيخ زروق يميل إلى الاقتصاد في الكلمة والإيضاح في الفكرة"[13].

بعد هذا الجرد السريع لمؤلفات الشيخ يظهر بجلاء أنه فعلا جمع بين فقه الشريعة وعلم الطريقة، وبين ظاهر الأحكام الشرعية ومقاصدها التربوية، وبين علوم وفنون عديدة ومتنوعة، جعلته محل تقدير واحترام من المالكية وغيرهم، ومن الصوفية وخصومهم.

[1] صدر عن دار الكتب العلمية، بيروت، بتحقيق محمد طيب، 2010م.

[2] توجد نسخة منه بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الجامعية تحت رقم: 4635، تقع النسخة في 10 ورقات، وهو متاح تحميله من موقع المكتبة على الشبكة.

[3] أخرج هذا الشرح يوسف أحمد ضمن تحقيقه لشرح أسماء الله الحسنى للشيخ أحمد زروق، ص: 177-218. طبعة دار الكتب العلمية، ط الأولى، 2007م.

[4] يوجد مخطوطا بالمكتبة الوطنية بالرباط.

[5] هو نفسه قواعد التصوف كما تقدم.

[6] الكتابان الأخيران موجودان بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بالرباط.

[7] صدر عن دار الكتب العلمية سنة 2016م.

[8] صدر عن دار الكتب العلمية، بيروت سنة 2007م.

[9] الكتب الثلاثة الأخيرة صدرت عن دارة الكرز سنة 2010م، بتحقيق: محمد عبد القادر نصار.

[10] هي نفسها "الوظيفة الزروقية" المتقدمة.

[11] صدر عن دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2010م. بتحقيق محمد طيب.

[12] للمزيد حول مصنفات زروق ينظر: "أحمد زروق والزروقية" لعلي فهمي خشيم، ص: 91- 147. و"الشيخ أحمد زروق: آراؤه الإصلاحية: تحقيق ودراسة لكتابه "عدة المريد الصادق" لإدريس عزوزي، طبعته وزارة الأوقاف المغربية سنة 1998م، ص: 127- 153.

[13] المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية، ص: 58.

المحور الثاني: أثر الشيخ زروق وجهوده في خدمة المدرسة المالكية الليبية والمغاربية

كان الشيخ زروق رحمه الله –كما يقول مترجموه–: "عالمًا محققًا، ورعًا زاهدًا، شديد النكير على البدع، آيةً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقّافًا عند حدود العلم، وأحكام الشرع وآدابه"[1].

فكان بذلك «صاحب حركة إصلاحية دينية كبرى، نال بها الصفة الجليلة والضخمة، التي أطلقها عليه علماء المغرب، وهي: محتسب الصوفية والعلماء التي لم تطلق على غيره من علماء الصوفية[2].

فما جهود الشيخ في خدمة الفقهين، فقه الشريعة وفقه الطريقة؟

وكيف جعل الفقه المالكي فقهًا عامًّا يحكم نواحي التفكير كلها؟

وما الإضافات النوعية التي امتاز بها عن غيره من علماء المالكية التي يمكن الاستفادة من توظيفها في التمكين للفقه المالكي في زماننا؟

المطلب الأول: جهود الشيخ زروق في التأصيل الفقهي للعلوم الشرعية وضبطها بضوابط المدرسة المالكية

إن عبارة: "شديد النكير على البدع، آيةً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في النص الآنف الذكر، ولقب "محتسب الصوفية " وعبارة "فقيه الصوفية" وغيرها من التجليات الفقهية التي لا تخلو منها ترجمته، تدل بجلاء على مكانة الشيخ الفقهية وجهوده في خدمة وتجديد الدرس الفقهي بين المالكية، ورغم ذلك– وكما سبق في المقدمة– لم يحظ المنحى الفقهي للشيخ بالاهتمام الذي حظيت به المناحي المعرفية الأخرى كالتربوية والصوفية وغيرها، علما أن كتبه كلها بنيت على الفقه بالأساس كما سنرى.

---

[1] المطرب بمشاهير أولياء المغرب لعبد الله بن القادر التليدي، ص: 148.

[2] موسوعة معلمة المغرب، ج 14، ص: 4628.

فمهنة الحِسْبة –"ذلك الوظيف الشرعي الممتاز، الذي يعم اختصاصُه ويشمل كل الوظائف الشرعية، حتى الخلافة والقضاء"[1]– لا تسند إلا للفقهاء المتمكنين من أصول الفقه وفروعه، وهو ما تحقق في شيخنا الذي وصفه مترجموه بالبارع في الفقه[2]، وآخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة[3]. وبـ" محقق النظرين، ومحصل المذهبين، ومرتضى الفريقين، مقتدى أهل العلم الباطن، ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر، قطب مغربنا، وإمام أئمتنا"[4].

فالمحتسب "الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر"[5] المبين للحلال والحرام. لا يكون إلا من الفقهاء الذين جمعوا بين التمكن من الأحكام وحسن التنزيل والتبليغ والإقناع. وهو ما تحقق في الشيخ زروق آخر المحققين الجامعين بين الفقه والتصوف، المحتج به عند الطائفتين.[6]

سبقت الإشارة إلى أن المتأمل في مؤلفات الشيخ زروق المصنفة على أنها عند التحقيق ليست في التصوف العام، وإنما جلها وأغلبها في فقه التصوف، قصد منها ضبط القضايا التربوية والروحية الصوفية بضابط الأحكام الفقهية، فكتب التصوف التي سبقت الإشارة إليها ككتاب "القواعد في التصوف"، وكتاب "النصح الأنفع والجُنَّة للمعتصم من البدع بالسنة"، وكتاب "عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت"، وكتاب "رسالة في أصول الطريق"، وكتاب "الدرة المنتخبة في الأدوية المجربة"، و"تحفة المريد" وغيرها من الكتب وإن صنفت –كما قلت– على أنها في التصوف؛ إلا أنها عند

---

[1] ذكريات مشاهير رجال المغرب، ج 1، ص: 549. بتصرف يسير.

[2] الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، عبد الرؤوف المناوي، ج 3، ص: 166.

[3] نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 132.

[4] الرحلة العياشية ج 1، ص: 187

[5] ذكريات مشاهير رجال المغرب ج 1، ص: 549. بتصرف محدود.

[6] الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي، ج 4، ص: 98 طبعه المؤلف سنة 1340 و 1345 هـ بمطبعة إدارة المعارف بالرباط ومطبعة البلدية بفاس.

التحقيق هي في فقه التصوف، وفي بيان ما يقبل منه فقها وما يرد، وما يوافق الدليل وما يضاده.

فإذا أخذنا مثلا كتابه الأشهر في التصوف "**القواعد**" سنلحظ بجلاء ذلك الحضور القوي للفقه ولفقه المالكية بالخصوص، فابتداءً بمقدمة الكتاب التي صرح فيها بضرورة إيصال الطريقة بفقه الشريعة، وانتهاءً بالخاتمة التي ألحّ فيها على ضرورة الالتزام بالكتاب والسنة وظاهر الأحكام الفقهية؛ مرورًا بالقواعد المائتين والخمس والعشرين (225) التي ذكرها؛ كل ذلك يجعل القارئ يتأكد أن الكتاب هو كتاب فقهي بالأساس.

ولتوضيح ذلك أكثر أورد الملاحظات الآتية:

الملحوظة الأولى: ضرورة استناد التصوف على الفقه وخضوع الطريقة للشريعة.

لقد صرح الشيخ زروق أكثر من مرة بضرورة الرجوع في بناء ما هو صوفي إلى حكمه الفقهي، وعدم حصر الفقه في المعاملات والعبادات الظاهرة، بل لا بد من تلازم بين العبادات الروحية والأذكار التربوية الصوفية وبين الأحكام الفقهية، كما في القاعدة رقم: (4) التي نص فيها على أنه "لا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه" ثم أورد – في معرض الإقرار – ما ينسب للإمام مالك قوله: " من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

والأمر نفسه يقال أيضًا عن القاعدة رقم: (13) التي تحدث فيها عن أهمية الفقه ودوره في "إصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام"، وكذلك القاعدة رقم: (20) التي ذكر فيها أن "الفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه".

والمعنى نفسه ذكره في القاعدة رقم: (21) والقاعدة رقم: (22) من ضرورة العلم والمعرفة بأحكام الفقه، وأنه "لا يصلح العمل بالشيء إلا بعد معرفة حكمه ووجهه". وأنه "لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه" كما في القاعدة رقم:81 كذلك.

وكذلك القاعدة رقم: (210) التي نص فيها –رحمه الله– على ضرورة خضوع التصوف لأحكام الفقه، فـ"التصوف لا يكمل إلا بالفقه، ولا يغني عن الفقه بخلاف العكس" لأنه "لما كان الفقه في علمه لا يصح التصوف بدونه، كان التزامُه صدق القصد به محصلًا له. فمن ثم كان الفقيه الصوفي تام الحال، بخلاف الصوفي الذي لا فقه له، كفى الفقه عن التصوف، ولم يكف التصوف عنه".

الملحوظة الثانية: إنكاره على الصوفية المتفلتة من الأحكام الفقهية.

فقد أنكر –رحمه الله– غير ما مرة على الصوفية الذين لا يلتزمون بأحكام الفقه، وشنع عليهم تكاسلهم عن الفقه وادعاء المعرفة بدون تعلم، كما في القاعدة رقم: 25 التي قال فيها: "لا علم إلا بتعلم عن الشارع، أو من ناب منابه فيما أتى به" لذلك يصح –كما في القاعدة رقم: 26– "إنكار الفقيه على الصوفي، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف للفقه في الأحكام والحقائق، لا بالنبذ والترك، وصحّ الاكتفاء به دونه. ولم يكف التصوف عن الفقه، بل لا يصح دونه، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به. وفي ذلك قيل: (كن فقيها صوفيا، ولا تكن صوفيا فقيها)" بمعنى تعلم الفقه سابق ومقدم بل وحاكم على غيره في مجال العلم والمعرفة.

الملحوظة الثالثة: الاستشهاد والاستدلال بأقوال الفقهاء المالكية على المسائل الصوفية.

أكثر الشيخ من الاستدلال بآراء المذهب وبكلام إمام الذهب كما في القاعدة رقم: (45) التي أشار فيها إلى قول سحنون وغيره من علماء المذهب "بأنه لا يفتى بالمغرب بغير مذهب مالك"، كما أنكر في القاعدة رقم: (46) على عدم التزام الصوفية بمذهب "فلا يصح قول من قال: الصوفي لا مذهب له" كما حكى في القاعدة رقم: (68) قول ابن حبيب وأبي بكر ابن العربي وغيرهم، والشيء ذاته في القاعدة رقم: (111) التي رجح فيها ما رآه ابن العربي "عن عدم جواز الزيادة في ألفاظ الأذكار" ونقل المعنى ذاته عن الشاطبي في القاعدة رقم: (43) والقاعدة رقم: (57) ورقم: (121) ورقم: (129).

كما أورد في القاعدة رقم: (128) قول ابن الفاكهاني في شرح الرسالة من أنه: "(ليس في السماع نص بمنع ولا إباحة). يعني على الوجه الخاص، وإلا فقد صح في الولائم والأعياد ونحوها من الأفراح المشروعة والاستعانة على الأشغال. فإذا المسألة جارية على حكم الأشياء، قبل ورود الشرع فيها،" كما استشهد برأي أبي عبد الله القوري رحمه الله في القاعدة رقم: (168).

كما كان يختم المسائل الخلافية بما رآه المالكية وذهب إليه إمامهم كما في قوله في القاعدة رقم: (121) التي قال فيها بعد خلاف "وأما مذهب مالك في ذلك كله، هو الكراهة لعدم عمل السلف، ولسد ذريعة الابتداع بالزيادة على ذلك، والخروج فيه لغير الحق، وقد وقع ما اتقاه رضي الله عنه". والشيء نفسه في القاعدة رقم: (129).

الملحوظة الرابعة: ذكره للأحكام الفقهية واستعماله لمصطلحات الفقهاء

مما يدلل أيضا على أن كتب التصوف هي كتب في فقه التصوف، ذلك الحضور القوي للأحكام الفقهية ومصطلحات الفقهاء كما في القاعدة رقم: (80) التي تحدث فيها عن ترتيب الحكم الفقهي و"الفرق بين الضروري والحاجي والتكميلي.." وكما في القاعدة رقم: (91) التي تعرض فيها لفقه السياسة الشرعية و"تحريم الخروج عن الإمام بقول أو فعل، حفظ النظام واجب، ومراعاة المصلحة العامة لازم، فلذا أجمعوا على تحريم الخروج عن الإمام، بقول أو فعل حتى أن جز في إجماعهم على الصلاة خلف كل بر وفاجر من الولاة وغيرهم ما لم يكن فسقه في عين الصلاة، وكذا يرون الجهاد مع كل أمير من المسلمين، وإن كان فاجرا لا غيره".

أيضًا في القاعدة رقم: (94) حكم فقها على الذين يلزمون أنفسهم الجوع والعطش... بأن "الأجر على قدر الاتباع، لا على قدر المشقة" وفي القاعدة رقم: (111) التي منع فيها الزيادة على الأذكار المنصوص على صيغتها وعددها كالأذكار عقب الصلوات المحصورة في ثلاثة وثلاثين لأن "ما خرج مخرج التعليم وقف على وجهه من غير زيادة ولا نقص" باستثناء "زيادة (سيدنا) في الوارد من كيفية الصلاة عليه ﷺ، والوجه أن يقتصر على لفظه"، كما لم تخل القواعد رقم:

(121) رقـم: (124) رقـم: (128) ورقـم: (129) ورقـم: (136) ورقـم: (141) ورقم: (159) ورقم: (168) ورقم: (175) من التصريح بالحكم الفقهي للمسائل الصوفية من الجواز أو الندب أو المنع أو الكراهة.

كل هذا يؤكد مرة أخرى أن الرجل كان فقيهًا يخضع كل شيء لأحكام الفقه وقواعده وضوابطه حتى في الكتب التي صنفت على أنها غير فقهية، أما مؤلفاته الفقهية فلا يحتاج القارئ فيها إلى كبير عناء ليدرك جهود الرجل وتميزه ومزاياه، كما في المطلب الآتي.

المطلب الثاني: جهود الشيخ زروق وأثرها على المدرسة المالكية الليبية المغاربية.

إذا انتقلنا من كتب فقه التصوف إلى باقي المؤلفات الفقهية المباشرة، فسنجد أن للشيخ أيادي بيضاء على المدرسة المالكية الليبية؛ بل والمغاربيّة بشكل عام، من خلال مؤلفات وإسهامات رامت شرح أصول المذهب وما عليه المعول في زمانه، ومن أهمها كما سبق:

- شرح مختصر خليل في فقه المالكية.
- شرح رسالة أبي زيد القيرواني.
- شرح الوغليسية.
- شرح القرطبية.
- مفتاح السداد الفهمي في شرح (الإرشاد الفقهي) لابن عسكر البغدادي.
- رسالة في ترغيب سكنى المدينة.
- النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة .
- مناسك الحج في الفقه.

وغيرها من المؤلفات التي غطت مختلف المناحي التي يحتاجها طلاب الفقه وأهله، والتي تحتاج إلى دراسة مستقلة عن كل مؤلف منها، ولكن لطبيعة المقام سأكتفي باثنين منها فقط.

الكتاب الأول: شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني[1]

لا يخفى على كل منتسب للعلم قيمة كتاب الرسالة وأهميته في المدرسة المالكية، لذلك تعددت شروح العلماء له قديماً وحديثاً، وتنوعت اجتهاداتهم في تبسيط معانيه وتذليل صعوباته وفتح مغلقاته، وكلّ يضمِّن شرحه ما يراه مناسبًا لطلابه ورواد دروسه، ومنهم الشيخ زروق الذي قال في مقدمته: ".. فوضعت هذه العجالة بحسب الوسع والتيسير.. وأن ينفع به الخاص والعام".[2]

تضمن شرح الشيخ زروق مباحث مسائل العقيدة، ثم الأبواب الفقهية، على ترتيب الكتاب، مبتدئًا بأبواب الطهارة وختم بباب في الرؤيا والتثاؤب والعطاس واللعب بالنرد... مجتنبًا في كل ذلك الإطناب الممل، والاختصار المخل، والتبسيط دون التعقيد، مستعينا في ذلك باللغة في بيان الغموض..

سلك رحمه الله في الكتاب مسلك إيراد الأقوال في المسألة ثم الاستدلال لما يرجحه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ثم آراء من سبقه من أعلام المذهب، كحدود ابن عرفة (ت803 هـ)، وشرح مختصر ابن الحاجب لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري (ت749 هـ)، والمختصر الفقهي للشيخ خليل (ت769 هـ)، وشرح ابن الحاجب لأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي (ت875 هـ)، وشرح الرسالة للقِلْشَاني (ت863 هـ) وآخرين.

فاستحق شرحه بذلك أن يكون مرجعا لطلاب الفقه المالكي ودارسيه، ومصدرا للفقهاء المؤلفين في فقه المذهب ومسائله، فنقل عنه صاحب مواهب الجليل، والإمام الخرشي (ت1102 هـ) في شرحه على مختصر خليل، وصاحب "الفواكه الدواني"، والعدوي (ت1189 هـ) في حاشيته على شرح كفاية الطالب الرباني، وغيرهم.

---

[1] طبع الكتاب مرات منها: طبعة دار الجمالية بالقاهرة سنة 1914م، وطبعة دار الفكر ببيروت سنة 1402هـ/1982م، وطبعة دار الكتب العلمية سنة1427هـ/2006م.

[2] شرح الشيخ زروق على متن الرسالة، عناية أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى 2006م، ص: 09.

الكتاب الثاني: شرح المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية

لقد كانت ولا تزال طرق التدريس في التعليم العتيق بالغرب الإسلامي كله تقوم على حفظ المتون العلمية المختصرة حتى يتمكن الطلاب من ضبط المسائل الفقهية والتمكن من شتاتها، ومن تلك المتون العلمية المفيدة في الفقه المالكي "**المقدمة القرطبية**" أو "**أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون**" للشيخ العلامة الفقيه أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي (ت567 هـ) التي يبلغ عدد أبياتها (117) بيتاً، فعمد الشيخ إلى شرحها لحاجة الطلبة إلى توضيح معانيها، وبيان محل التعقيد فيها ، شرحا سهل العبارة وافر الدلالة، كما يقول في المقدمة: "فقد رأيت كثيرا منهم . يقصد المتعلمين . يحفظون المقدمة القرطبية من غير أن يعرفوا لها معاني، ولا وجوهاً خفية ولا جلية، فظهر لي أن أضع تقييدا مفيدا إن شاء الله، وأذكر فيه ما يكفي المرء في شأنه بفضل الله".

وقد تناول – رحمه الله– شرح الأبيات حسب ترتيبها الذي يوافق ترتيب الأبواب الفقهية، مبتدئا بالمفاهيم اللغوية والاصطلاحية، مستدركا على الناظم ما يراه مناسبا من الفوائد والطرائف والنكت الفقهية، كما في باب التيمم والحيض والنفاس.

وكما في شرح الرسالة: فقد استعان هنا باللغة المتمكن من فنونها في تقريب التعريفات والمفاهيم، ثم أورد الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية مع ببيان درجة الحديث وإيراد من خَرَّجه، مع تطبيق ما تقرر في المذهب من القواعد الفقهية والأصولية.

ثم أقوال العلماء ورأي جمهورهم وترجيح المذهب بعد إيراد الخلاف في المسألة، مع الإحالة إلى مصادر الأقوال التي رجع إليها كالمدونة، والواضحة، والرسالة، والعارضة، والبيان والتحصيل، والذخيرة، وشروح الرسالة، ومؤلفات اللخمي، والباجي، وابن القصار، وغيرهم.

فكان الشرح بذلك جامعاً شاملاً لأحكام ما رام إليه صاحب النظم من ذكر لقواعد الإسلام الخمس.

الخاتمة

كان الفقه المالكي عبر الأزمان هو المذهب الرسمي لمنطقة الغرب الإسلامي، ولكن متون هذا الفقه المقررة على الطلبة – في زمن الشيخ زروق– ومصادره التي يرجع إليه العامة والخاصة، هي بحاجةٍ إلى مزيد من الجهد والاجتهاد والتجديد على مستوى التمثيل لها، والتقريب لمشكلاتها، والتبسيط لعبارتها، والتنزيل الحسن لها على وقائعها، كما كان الفقه المالكي والفقه عمومًا، يحتاج إلى بدل الجهد–أيضًا– في ربطه مواضيعه بمناحي الفكر كله ووقائع الحياة جميعها.

وهذا ما قام به الشيخ زروق رحمه الله، فقام بإحياء الروح التربوية لأحكام الفقه الشرعية، وربطه بباقي العلوم لاسيما التصوف ومسائله، كما قام بشرح أصول المذهب ومتون الفقه المالكي، بما يجعل منه فقهًا معاصرًا لزمانه قريبًا من طلابه، وذلك ما نحتاجه في زماننا، ولعل الله يقيض في هذا المحفل العلمي هممًا تنهض لذلك آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

البغدادي، إسماعيل بن محمد (1941). إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين بالتقايا، و رفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الجزائري، أبو زيد الوغليسي (2010). شرح العلامة زروق على المقدمة الوغليسية في العقيدة والفقه والتصوف، ط الأولى، تحقيق: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

الحجوي، محمد بن الحسن (1340–1345 هـ). الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج 4 ص: 98 ، مطبعة إدارة المعارف، الرباط، المغرب.

الحليمي، هشام (2017). ملامح الدرس العقدي عند صوفية الغرب الإسلامي الشيخ زروق نموذجا، رسالة دكتوراه، جامعة القرويين، المغرب.

الخروبي، عبدالله محمد (2010). أصول الطريق، مع شرحه "النبذة الشريفة في الكلام عن أصول الطريقة، ط الأولى، تحقيق: محمد طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر (1920). الرحلة الناصرية، المطبعة الحجرية، فاس، المغرب.

العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد (2006). الرحلة العياشية، ط الأولى، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.

الفاسي، أحمد زروق (1980). الكناش: صور من الذكريات الأولى، طبعة خاصة بمناسبة مهرجان زروق (الذكرى الخمسمائة لوفاته)، تحقيق: علي فهمي خشيم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا.

الفاسي، أحمد زروق (1993). النصيحة الكافية، ط الأولى، تحقيق: قيس بن محمد الشيخ مبارك، منشورات مكتبة الإمام الشافعي–الرياض ومكتبة الظلال–الأحساء، السعودية.

الفاسي، أحمد زروق (2005). المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية، ط الأولى، تحقيق: أحسن زقور، دار التراث ناشرون، الجزائر ودار الغرب الإسلامي، الجزائر.

الفاسي، أحمد زروق (2006). عدة المريد الصادق، ط الأولى، تحقيق: الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2007). الأنوار الإلهية شرح الوظيفة الزروقية، ط الأولى، شرح: عبد الرحمن بن محمد العياشي المالكي، عناية: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2007). شرح أسماء الله الحسنى ويليه شرح منظومة الدمياطي لخواص أسماء الله، ط الأولى، تحقيق: يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2007). قواعد التصوف، ط الثالثة، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2008). الحكم العطائية للقطب الجامع للشريعة والحقيقة، ط الثالثة، تحقيق: رمضان محمد بن علي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2010). شرح الحكم العطائية أو مفتاح الإفادة لذوي العقول والهمم على معاني ألفاظ كتاب الحكم، ط الأولى، تحقيق: مصطفى مرزوقي، دار ابن حزم، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2010). عيوب النفس ودواؤها، وعلى هامشه كتاب: عيوب النفس للسلمي، ط الأولى، تحقيق: محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2011). الشرح الحادي عشر على الحكم العطائية، ط الأولى، تحقيق: نزار حمادي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق (2012). إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، ط الأولى، تحقيق: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس.

الفاسي، أحمد زروق (2012). تعليق على مقطّعات الشُّشْتَري، دراسة وتحقيق: المصطفى لغفيري، ط1، المطبعة والوراقة الوطنيّة، مراكش، المغرب.

الفاسي، أحمد زروق (2013). الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ الحكم العطائية، ط الأولى، تحقيق: محمد طيب، كتاب ناشرون، بيروت، لبنان.

الفاسي، أحمد زروق(د.ت). شرح صحيح البخاري للشيخ زروق الفاسي، تقديم: عبدالحليم محمود، تحقيق: عزت علي عطية وموسى محمد علي، طبعته دار حسان، القاهرة، مصر.

القرطبي، سابق الدين (2012). التذكرة القرطبية، شرح: الشيخ أحمد زروق، دراسة وتحقيق: أحمد عثمان إحميد، وسالم محمد مرشان، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

المنوفي، محمد (1983). المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب.

ابن أحمد، محمد بن محمد (ابن مريم) (1908). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، عناية: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر.

عزوزي، إدريس (1998). الشيخ أحمد زروق آراؤه الإصلاحية، تحقيق ودراسة: عدة المريد الصادق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

كنون، عبد الله (2010). ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، تقديم: محمد بن عزوز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.